**تونس: الواقع الخفي للعنصرية ضد السود**

**BBC News عربي، 02.08.2022**

<https://www.youtube.com/watch?v=WLpRTLD_0F4&t=104s>[[1]](#footnote-1)

أنا ناريمان دوسه. أنا سودانية أعيش في لندن منذ 2015. لكنني وُلدت في السعودية ونشأت في الخليج.

كفتاة سوداء، اكتشفت أنني أينما عشت، كنت أعامل بطريقة مختلفة. كانت المعلمات ينتقينني للعقاب بينما كان بقية الأطفال يطلقون عليّ شتى النعوت بسبب ملامحي. كانوا يتوقعون مني أن أسلي الصف بموسيقى الراب أو الرقص. وكل ذلك كان بسبب لون بشرتي. لذا فقد نشأت معتقدةً أن العنصرية أمر عادي.

ترك مقتل جورج فلويد في 2020 أثراً هائلاً في نفسي، فقد جعلني أفكر في العنصرية التي نشأت معها وكيف أثرت عليّ بطرق ما زلت لا أستطيع فهمها تماماً.

أنا الآن هنا في تونس، أول بلد عربي يحاول القضاء على العنصرية من خلال التشريعات القانونية. أريد أن أعرف هل يمكن للقوانين أن تحدث فرقاً حقيقياً عندما يتعلق الأمر بالتمييز أم أن المجتمع هو الذي يحتاج إلى التغيير، لكي يستطيع العرب السود الاحتفاء الهويتين.

من تونس انطلقت انتفاضة الربيع العربي في ديسمبر/ كانون الأول 2010. ولم تُسقط الاحتجاجات الحكومة فحسب، بل كان لها تأثير هائل على المجتمع المدني. شعر الناس بأنهم يملكون القوة للكفاح من أجل المساواة على كافة الأصعدة. ويتجلى ذلك أكثر عندما يتعلق الأمر بالعنصرية.

العنصرية في الدول العربية لا تكون دائماً عنصرية مباشرة، إنها تظهر بالكلمات أو الأسماء التي يطلقها الناس على الأشخاص السود مثل "تكروني" أو "عبد" أو "خال". لا يتم تمثيلنا كأشخاص سود في مختلف المجالات. لا وجود لنا في المجال السياسي أو النظام التعليمي أو الإعلام وحتى لو ظهرنا فسنظهر كوجوه سوداء (black face).

عروض تلفزيونية تحظى بشعبية، يظهر فيها ممثلون بيض وقد طلوا وجوههم ليظهروا أصحاب البشرة السوداء بشكل هزلي. وبالنسبة لشخص مثلي هذا مسيء.

ورغم ما يطلقون عليها بالفكاهة أو المزاح فإنها في النهاية تعريفات عنصرية. أتمنى أن يجرب الناس، ولو ليوم واحد، الحياة التي نعيشها كأشخاص سود لكي يلمسوا ما نمر به.

العنصرية لا تقتصر على الألفاظ فقد كانت هناك اعتداءات بدنية أيضاً. أنا في طريقي لمقابلة سعدية مصباح، أبرز ناشطة اجتماعية في تونس والتي كافحت من أجل حقوق التونسيين السود لعقود. أردت معرفة حجم المشكلة هنا في تونس.

الأمر الأول هو عقلية المجتمع. الفرد التونسي يندهش عندما يرى امرأة سوداء تعمل كمضيفة طيران أو عندما يرى أسود يقود سيارة جيدة.

ولزمن طويل، كانت سعدية امرأة سوداء رائدة. وفي العام 1981 أصبحت أول أفريقية عربية تعمل مضيفة في الخطوط الجوية التونسية.

هذا يؤدي إلى تهميش الشخص الأسود. ويضعونهم في خانة خاصة بهم. ما هي؟ يرون السود فقط كخدم، وهم وجدوا لخدمتنا لأنهم لا يصلحون لشيء آخر.

لم تكن سعدية لتترك ذلك يعرقلها فأسست منظمة "منيمتي" التي تسعى لمكافحة العنصرية والمطالبة بالمساواة العرقية.

قبل 2013 كان من المستحيل أن تكون لدينا منظمة للتونسيين السود بسبب تهميش التونسيين السود في المجتمع.

ما الذي تفعلونه لمساعدة مجتمع السود في تونس؟ منذ البداية رأينا بأن هناك حاجة لدعم قانوني. هناك حاجة لقانون قوي يمنع كل أشكال التمييز العنصري في تونس.

في عام 2014 ازداد زخم المطالبة بسن قانون جديد عندما أصبحت جميلة كسيكسي أول امرأة سوداء تُنتخب عضواً في البرلمان.

هناك كثيرون لا يحبون أن يعترفوا بوجود تمييز عنصري. يقولون إنهم لا يعلمون به. وكان التحدي الكبير هو مواجهة موجة الإنكار. أحد أهم القوانين التي تعاملت معها خلال عملك في البرلمان هو القانون رقم 50.

هذا القانون هو قانون القضاء على كافة أشكال التمييز العنصري. استمعنا إلى الكثير من السود، من الضحايا، من صناع الرأي في هذا المجال. اليوم ضحايا التمييز العنصري في تونس أصبح لديهم هذا القانون الذي يعتبرونه سنداً لهم. أولاً من جانب الردع لأنه أصبح متداولاً في المجتمع بأن هناك إطاراً تشريعياً يجرم هذه العنصرية.

من يدان وفق القانون رقم 50 يواجه غرامة تصل إلى 3000 دينار والسجن لمدة أقصاها 3 سنوات.

هذه حلقة من الحلقات التي تتشرف تونس بإنجازها وهي المصادقة على القانون المتعلق بالقضاء على كافة أشكال التمييز العنصري.

صحيح، أنّنا لا نغيّر المجتمع بالقانون ولكن القانون ضروري لتغيير المجتمع.

في فترة التسعينات، الفترة التي نشأت فيها في السعودية لم يكن هناك أي قانون يحميني من العنصرية. وحتى لو وجد مثل هذا القانون، لم أكن لأعرف شيئاً عنه. القانون رقم 50 يمكن أن يحدث تغييراً كبيراً في حياة السود في المنطقة كلها.

في العام 2018 دخل القانون رقم 50 حيز التنفيذ. وفي العام التالي سجل النشطاء 76 حالة تمييز عنصري. وبعدها بعام قفز هذا الرقم إلى 285 حالة. أي بزيادة نحو 400% .

وشملت الحالات موظفة تعرضت لإساءة عنصرية في العمل ورجلاً تعرض لإهانة عنصرية من أحد أفراد الشرطة.

ما أريد معرفته هو ما إذا كان هذا القانون يقود إلى أي إدانات؟ جئت لمقابلة لسعد. عمل لسعد في نفس الشركة لـ12 عاماً. كان موظفاً يحظى بالثقة والتقدير وأحب عمله. ثم قبل 3 سنوات تم تعيين مديرة جديدة له، فتغير كل شيء. أخبرني لسعد بما حدث.

كنت أعمل مع صاحب الشركة وقد تطورت الشركة وتوسع عملها. ثم تم تعيين موظفة جديدة في إدارة الشركة. وهذه المديرة الجديدة لم تكن تتقبل لون بشرتي.

أخبرتني محامية لسعد، هيفاء عبد العزيز، بالمزيد.

مارست العنصرية ضده لمدة عامين.

خلال نقاشنا قامت فجأة بإهانتي. كان تعاملها معه سيئاً وكانت تتعمد إهانته وتكلفه بأعمال ليست جزءاً من وظيفته. قالت لي كلمة لم أتمكن حتى من الرد عليها "سيبت عليّ واصفنتك".

في تونس تطلق كلمة "وصيف" هذه على الشخص الأسود. هذه كلمة جارحة وليست كلمة عادية. كانت تمارس ضغوطاً عليه لكي يترك العمل لكنه تشبث بوظيفته.

اشتكى لسعد لمالك الشركة لكنه أهمل شكواه لا بل أيّد المديرة.

لم يجد لسعد كريم من يؤازره إذ لم يكن هناك شهود. حتى زملائي رفضوا أن يدلوا بشهاداتهم. لقد طرد من العمل بسبب لون بشرته السوداء فقط.

أصبت بصدمة. لماذا؟ ما ذنبي؟ ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟ لقد تحطمت. تخيل، كنت أحب الخروج والنزهة، لكنني فقدت الرغبة في الخروج من المنزل، بقيت في المنزل. اسمحوا لي..

سامحنا، أرجوك.

رفع لسعد ومحاميته قضيته إلى المحكمة استناداً إلى القانون رقم 50. قالت الشركة إنها لم تطرده، بل إنه هو الذي ترك عمله. كما نفت التمييز العنصري. وقررت المحكمة إسقاط القضية لعدم توفر الأدلة. والآن تدافع محاميته عن قضيته من خلال محكمة العمل لتعرضه للفصل التعسفي لأسباب عنصرية.

خلال عملي المهني في الخليج عندما كنت في العشرينيات من عمري كثيرا ما كنت الشخص الأسود الوحيد في الغرفة.

إما أن الناس كانوا يتجاهلون وجودي أو أنهم كانوا يتعاملون معي كشخص ثانوي. لكن بعد فترة من الزمن ومع تكرار هذه المواقف، فإنها تصبح عبئاً كبيراً عليك.

لكن القانون رقم 50 يتجاوز معالجة التمييز الحالي، فهو يتناول تركة العنصرية والتي يمكن أن تصل إلى حد دلالة الاسم.

هل من الممكن أن نذهب في جولة أشاهد فيها الشوارع؟

مرحباً وأهلاً بك.

كمال عتيق زيري سائق سيارة أجرة محلي، عاش مع العنصرية طوال حياته.

اسمي كمال ولكن لقبي هو كمال عتيق زيري. أريد أن أحذف كلمة "عتيق" من لقبي.

لماذا تريد حذف "عتيق" من لقبك؟

كلمة عتيق في معناها هي كلمة محرجة جداً فهي دلالة على تمييز عنصري كبير. إنها تقلقني كثيراً ولن أشعر بالراحة حتى أحذفها من لقبي.

في الماضي، كثيراً ما كان مالكو العبيد التونسيون يفرضون تسمية "عتيق" على عبيدهم المحررين. وهي كلمة كانت بمثابة وصمة عار. على مر القرون، بيع الملايين من الأفارقة السود إلى العالم العربي كعبيد. وفي العام 1846، أصبحت تونس أول بلد عربي يلغي تجارة العبيد. لكن اسم كمال ما يزال يدل على أن أسلافه كانوا عبيداً وهو تذكير مستمر له وللآخرين. كان باستطاعة العرب البيض دائماً تغيير أسمائهم إذا ما أرادوا. لكن العرب السود لم يسمح لهم بذلك. والآن، يمنح القانون رقم 50 كمال هذه الحرية، نظرياً على الأقل. يكافح كمال وابنته لينا للتحرر من وصمة العار: "عتيق" بمساعدة محاميته ابتسام جبيبلي. ابتسام بيضاء، وهو حال كل المحامين التونسيين الذين ألتقي بهم ممن تخصصوا في قضايا التمييز العنصري.

السلام عليكم

أهلاً، كيف حالك؟

الحمد لله

لحذف كلمة "عتيق" رفعنا قضية في دائرة الأحوال الشخصية. أصابتني هذه الكلمة بعقدة نفسية؟

تخيل عندما تكبر ابنتك، كيف ستنظر إلى نفسها؟ عندما أخبرتها بعزمي على تغيير لقبي، فرحت كثيراً وهذا كل ما أريده، أن تكون سعيدة. كما قال كمال، هذه وصمة لازمته منذ طفولته وما يزال حتى اليوم يتحدث عنها بمرارة وغضب وهو يرغب بحذفها.

من خلال تغيير اسمه، يرغب كمال في استعادة كرامة ابنته وكرامته هو أيضاً. كما يحاول لسعد هو الآخر حماية أطفاله من عار التمييز العنصري.

هذا محمد

ماذا فعلت اليوم؟

لعبت "ليدو".

ليدو؟

نعم.

هل فزت في لعبة البليستيشن؟

نعم.

نسرين تحب تزيين البيت، تحب..

الفن التشكيلي

فن تشكيلي؟ إذن أنت رسامة؟

كلا، لكنني أحب اختراع بعض الأشياء

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة للسعد وأسرته منذ أن فقد عمله، لكنه ما يزال يتظاهر بالشجاعة.

لم أرغب بإشراك الأطفال في هذه القضية.

هل أنت نادم على إصرارك على القضية؟

كلا لست نادماً. أنا أتابع القضية إلى النهاية. لست نادماً. على الأقل سيعرف الأطفال بأنني حاولت. شكراً جزيلاً، شكراً جزيلاً، سامحنا..

عندما كان لسعد يتحدث، كنت أرى أبي. أستطيع أن أتخيله في نفس الحالة رجلاً يرى نفسه رب أسرة، الشخص الذي يفترض فيه أن يعيل أطفاله ويحميهم. تستطيع أن ترى كم يحبهم، ولكنه لا يشعر بالقدرة على حمايتهم، لا بد أنه شعور مؤلم. ما يزال لسعد يكافح من أجل قضيته، وما يزال يشعر بأنه محروم من العدالة.

في كل أنحاء العالم العربي يتعرض السود للتمييز ضدهم وليس هناك حل سريع في المعركة ضد العنصرية. أتشجع من نشطاء مثل أمونة علي وهي من أصل صومالي يمني لكنها عاشت في دولة الإمارات العربية المتحدة. وقد أمضت حياتها تكافح من أجل المساواة وفي 2020 أسست منصة إلكترونية تُدعى تجمع العرب السود. سألتها ماذا كانت ستفعل لو كانت في مكان لسعد.

بقدر ما أريد مواصلة الكفاح فإن إزالة ترسباتي سنين طويلة من الإساءة العنصرية في العالم العربي أمر منهك. ولهذا السبب فإننا بحاجة إلى تشريعات مثل القانون رقم 50، ونحتاج إلى إنجاحه.

خسر لسعد قضيته لأنه لم يستطع إثبات ما قيل له. لكن "منيمتي"، وهي جمعية مكافحة العنصرية أخبرتني بحالة أخرى تتضمن دليلا فعلياً على العنصرية.

لذا فإنني أغادر تونس العاصمة متوجهة جنوباً إلى صفاقس على بعد 270 كيلومتراً. صفاقس هي ثاني كبرى المدن التونسية ويبلغ عدد سكانها نحو 300 ألف نسمة. هنا، في العام 2019، تمت أول ملاحقة قضائية ناجحة وفق القانون رقم 50. أدينت امرأة لارتكابها إساءة عنصرية بحق معلم ابنتها العربي الأفريقي وحُكم عليها بالحبس 3 أشهر مع وقف التنفيذ وغرامة 300 دينار. وهذا يمنحني الأمل في أن تتعاطف المحاكم هنا مع قضيتي التالية.

"عاطف"، وهذا ليس اسمه الحقيقي، ممرّض في مستشفى حكومي هنا في صفاقس. هو قلق من العواقب المحتملة ولذا يفضل عدم الكشف عن هويته. كان في سيارة إسعاف في طريقه لتلبية نداء عندما بدأ السائق بإهانته.

قال: أنت قعبوط

كعبوت

قعبوط

"قعبوط" تعني أننا لسنا من سكان المدينة الأصليين. وأنّنا عبيد.

لمدة ساعة وربع كان يتجول في سيارة الإسعاف ويتحدث قائلاً بأننا سنبقى عبيداً دائماً ويستحيل علينا أن نصبح أسياداً.

لكن عاطف لم يدع هذا الحادث العنصري يمر دون توثيق.

أمسكت بهاتفي وبدأت التسجيل. سجلت كلامه وهو يتحدث دون توقف. في طريقنا الى المنزل قام بالإساءة لمدة 45 دقيقة وبكلام لا يصح أن أذكره لك. لقد شتمني بأبشع الكلمات بدون أي سبب. لم يحدث شجار بيننا. انطلق بالشتائم من تلقاء ذاته، لم يعتذر واعتبر ما حدث أمراً عادياً.

بدأ عاطف بتشغيل الفيديو الذي سجله لما قاله السائق له.

لا تستخدم الهاتف، خفف السرعة، أنت السائق، أنت تقودنا..

أنت تصور، استمر في التصوير..

سأنشره على صفحتك في فيسبوك. وغداً سترى..

لن تستطيع أن تفعل أي شيء.. ضعه في "\*\*" هل تريد مشكلة؟ كله مسجل.

كلام بذيء جداً. بصراحة مهين جدًّا. ألمني. يا إلاهي!

قبل أن أسمع أي إساءة عنصرية خطيرة، أوقف الفيديو. أخبرتني محاميته، حنين بن حسنة، بما حدث بعد ذلك.

تترافعي حالياً في قضية الأستاذ عاطف استناداً إلى المادة رقم 50.

هل كان من السهل استخدام هذه المادة خاصة وأنك تملكين أدلة؟

بالتأكيد، هناك فرق بأن تتقدم إلى القضاء بادعاء أن شخصاً ما قال لي أو أن شخصاً ما ضربني ولكن هناك فرق عندما يكون لديك دليل بالصوت والصورة. هل هناك دليل أكبر من ذلك؟ العقوبة هي السجن لمدة تتراوح بين شهر إلى سنة أو عقوبة مالية من 500 دينار فما فوق.

لكن حتى أثناء النظر في القضية لدى المحكمة، لم تتوقف الإساءات العنصرية تجاه عاطف.

واتضح لاحقاً أنها لم تكن إساءة منفردة من هذا الشخص لأنه تهجم عليه من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي ورغم وجود القانون رقم 50، لم يتوقف التنمر والإساءة. هل توفر هذه العقوبات الرمزية الردع؟ لا أظن ذلك.

سلمتني المحامية وثيقة تضمنت التعليقات التي نشرت على الفيسبوك منذ بدء القضية في العام 2021.

وبعضها كتبها سائق عاطف السابق.

لأن القضية ما تزال مستمرة، فإننا لا نستطيع عرض تفاصيل الوثيقة.

لإثبات أن الإساءة ما زالت مستمرة وما يزال علينا تقديمها إلى المحكمة لطلب عقوبة أشد.

في يوليو/ تموز 2022، حكمت المحكمة بأن عاطف قد عانى بالفعل من التمييز العنصري. ولكن بينما واصل مع محاميته دعواهما للمطالبة بتشديد العقوبة ازدادت الاعتداءات العنصرية سوءاً. وفي هذه الأيام، يحدث معظمها عبر وسائل التواصل الاجتماعي. إنها الجبهة الجديدة في الكفاح ضد العنصرية.

لكنني لست متأكدة إن كان باستطاعة أي قانون أن يتعامل معها حتى الآن.

أستخدم كثيراً مواقع التواصل الاجتماعي، وكثيراً ما ينتابني إحساس بالابتعاد عنها لإحساسي بأنها مواقع سامة لأن الناس لا يشعرون بأنهم قد يحاسبون، فمن الممكن أن يفعلوا أي شيء يرغبون به دون أن يتحملوا مسؤوليته.

عضو البرلمان جميلة كسيكسي لمست ذلك بنفسها.

تعرضت في بعض الأحيان لحملات رهيبة على صفحات التواصل. دائماً ما يهاجمونني بسبب لون بشرتي، لا تستطيعين أن تتخيلي حجم الألفاظ العنصرية والتدوينات العنصرية والتعليقات والصور، يأخذون صورتي ويصنعون منها أشياءً بشعة. دائماً أنا قرد في نظرهم.

يستخدم الكثير من الناس في العالم العربي وسائل التواصل الاجتماعي. لقد رأينا كيف يمكن أن تغير بلدًا، لقد لعبت دوراً كبيراً في الثورة، إنها منصة مهمة لمحاربة العنصرية ولكننا نحتاج إلى الشعور بالثقة في أنها منصة آمنة لمشاركة تجاربنا وقصصنا وآرائنا دون التعرض للهجوم.

من خلال ما أراه فإن القوانين محدودة في نطاق عملها. ويكمن التحدي في تغيير سلوك الناس. ولكن لتحقيق ذلك فإننا بحاجة إلى أفراد أشداء.

أنا هنا على وشك لقاء شخص لديه نهج مختلف تماماً لمعالجة العنصرية. حقّق صالح بركة شهرة في قطاع الأزياء.

وتخيلي أن عارضات الأزياء يمشين بهذا الحذاء.

أريد أن أعرف أكثر عنك. كيف بدأت؟

كان عمري 15 عاماً. بدأت كعارض أزياء.

أصبح صالح بركة أول عارض أزياء تونسي أسود ناجح، زينت صوره أغلفة أشهر المجلات وعروض الأزياء العالمية. لكن الأمر لم يكن سهلاً دائماً.

آنذاك، لم يكن هناك عارضو أزياء في تونس. والمشكلة التي واجهتها هي أن كل المصممين الذين يعملون في الأزياء الرجالية دائما يقولون لي So tall, so dark وهذا ما لا يتناسب مع مجموعة أزيائهم، سمعت ذلك مرة واثنتين وثلاثاً، وكان ذلك مهيناً أحياناً.

عندما تجاهله المصممون، قرر صالح أن ينفذ أعماله بنفسه. فتعلم الخياطة وأصبح مصمم أزياء في الأفلام قبل أن يؤسس مشغلاً خاصاً به. ولم يمكّن نفسه فحسب، بل أتاح المجال أيضاً لمساعدة الآخرين.

صممت أول مجموعة في 2006 وقررت أن يكون كل العارضين سوداً. لقد عانيت من العنصرية ولا أريد لأحد أن يعاني منها.

هل يمكن أن أرتدي هذا؟

نعم

هذا كان في الأساس ستارة.

هل يمكن أن أطلب منك أن تصمم لي شيئاً للعيد؟

نعم، طبعاً.

شكراً.

نحن الآن في المشغل.

ما شاء الله أنت طويل!

نعم، هذا هو المشغل.

هذا هو محل عملك. هنا يحدث السحر كله.

نعم، ها هو

أحببته

أنا واحدة من الناس، عندما كنت صغيرة كانت هناك ألوان معينة لم أكن أرتديها.

لماذا؟

لأنهم كانوا يقولون: كشخص أسود لا يفترض أن ترتديها.

لكن الشخص الأسود يمكن أن تتناسق معه الألوان أكثر.

بالنسبة لي، معظم المجلات التي كنت أطالعها لم تكن فيها عارضات سوداوات، مثلاً لم أبدأ بارتداء أزياء حمراء اللون إلا قبل بضع سنوات فقط لأنني عندما كنت صغيرة كانوا يقولون لي عندما يرتدي أسود زياً أحمر سيبدو وكأنه قطعة جمر محرقة أو إشارة مرور! بدأت أرتدي الأصفر منذ فترة قريبة ولم أرتد زياً برتقالياً حتى الآن.

مستحيل! هذا لوني المفضل.

لا أستطيع ارتداءه.

عندما أرتديه أشعر أن اللون غير ملائم لي.

انظري كيف يتناسق اللون البرتقالي أو الأصفر مع لون بشرتي. أعتقد أن البشرة السوداء ميزة كبيرة عندما يتعلق الأمر بالألوان. أعتقد أن لون بشرتك ملائم لكل الألوان.

كامرأة سوداء، تعيّن علي طوال حياتي ليس فقط التعامل مع تصورات الناس عني كخادمة أو بائعة هوى ولكن مع نظرتي لنفسي أيضا. لقد نشأت مع شعور عميق بعدم الاستقرار بسبب ملامحي ولوني. لقد شعرت بالدونية. أريد أن أعرف ما إذا كان لدى نسوة سوداوات أخريات تربين في دول عربية نفس الشعور. فالتقيت بامرأتين تعرفت عليهما عبر وسائل التواصل الاجتماعي هما غفران بينوس من تونس وبسمة ناصر من اليمن.

كامرأة سوداء تربت في اليمن، ما أشكال العنصرية التي واجهتها؟

سأحدثك عن موقف تعرضت له عندما كنت طفلة. قالت زميلة لي: إذا غسلت جسدك بالكلور فستعودين بيضاء مثلي.

هذا ما قيل لي أيضاً ولكن الفرق أنها لم تقم بذلك بينما أنا فعلته. غسلت وجهي بالكلور وتضررت بشرتي.

أولاً، العنصرية تمارس على المرأة أكثر من الرجل باعتبارها امرأة وسوداء. عندما يمتلك الرجل إمكانات مالية فهذا سيجعله يعيش حياةً مرفهة وسيفضل أن يتزوج امرأة بيضاء، لن يرغب بالزواج من سوداء لأن المرأة البيضاء ستعطيه مكانة مرموقة وستحل عقدة النقص التي كان يشعر بها عندما كان طفلاً أو حتى وهو رجل بالغ، وهي ستدخله إلى العالم الأبيض وستجعله أبيض في تفكيره وسيشعر بأنه أبيض ولم يعد شخصاً أسود.

تقدم رجل لخطبتي، لم يكن أسود، ولكن أمه رفضتني لأنني سوداء، لأنها تريد لابنها امرأة تملك معايير خاصة بالجمال كالشعر الأشقر والعينين الزرقاوين والبياض الناصع وكأنها صابون كريستال، أنا لست على الهامش بل خلف الهامش. لست موجودة.

أستطيع أن أتفهم ما قالته بسمة وغفران على مستوى شخصي.

عندما كنت صغيرة لم أكن أستطيع التأقلم مع بشرتي السوداء وكنت أتمنى أن أكون بيضاء، هذا أمر صعب يدمر نفسيتك.

أسافر 500 كيلومتر جنوباً إلى جربة وهي جزيرة قبالة الساحل التونسي، ووجهة سياحية مفضلة. لكن سبب ذهابي إليها هو أنها تضم نسبة كبيرةً من التونسيين السود. وينتابني الفضول لمعرفة ما إذا كانت حياتهم هنا تختلف عن حياة أولئك الذين التقيت بهم في المدن الكبيرة. لكنني متوجهة بداية إلى ضواحيها فقد أُخبرت بمكان لا أصدق أنه حقيقي. هذه مقبرة يُدفن فيها الموتى السود بشكل منفصل عن البيض.

لكن تساؤلي هنا هل الناس منقسمون في الحياة مثل انقسامهم هنا؟ دُعيت لعشاء لدى أسرة محلية، عائلة منصور. إنهم في الأصل من تونس العاصمة، ويعيشون الآن في جربة مع ابنيهما. هندة عربية بيضاء ومحمد عربي أسود.

هل تريدين سلطة؟

شكراً.

أريد أن أسمع منك كيف كانت بداية علاقتكما؟

كلانا من تونس. كنا نستقل الحافلة سوية ونسلم على بعضنا كل صباح ثم بدأت العلاقة تتطور ثم تقدمت لخطبتها وتزوجنا. مضى على زواجنا 31 عاماً.

31عاماً، ما شاء الله. ما هي مشاعرك وأنت تستمع إلى قصة والديك؟

كانا من الأوائل الذين يتزوجون زواجا مختلط العرق في هذا الحي.

هل كان هناك رفض من عائلتها؟

لم يقبلوا أن تتزوج رجلاً أسود ولكنها أصرت لأننا أحببنا بعضنا البعض.

كيف شعرت عندما رفضتك أسرتي؟

لم أشعر بشيء. كنت صغيراً آنذاك! ولكن عندما كبرت اكتشفت أن العنصرية موجودة بحيث لا يتزوج بعض الناس من أشخاص من لون بشرة مختلف.

في البداية، رفضت أسرة هندة محمد. ولكن بعد زواجهما، رحبا به في الأسرة.

أحبني السود كثيراً لأنني تزوجت رجلاً أسود لكن البيض كانوا يحتقرونني ويقولون لي "لماذا تتزوج شابة جميلة مثلك من رجل أسود. لماذا؟ لأنني أحببته. أنا أحبك أيضاً. بلحسن فاتح، ولكن ابني الآخر بشرته أغمق. عندما أخذته إلى الحمام كان الناس يحدقون فيه بتعجب ويسألون إن كنت قد سرقته فكنت أجيبهم: كلا، إنه إبني!

تبدو أسرة منصور كأسرة من جربة مندمجة بشكل مثالي. لكن محمد أخبرني أمراً حرك لدي، وبشكل لا إرادي، مشاعر عدم الارتياح التي أحسست بها كامرأة سوداء عزباء.

كل أفراد أسرتي متزوجون من نساء بيضاوات، وشقيقاتي السوداوات متزوجات من رجال بيض، معظم أفراد أسرتي هكذا.

كان زواج والديكما مختلطاً فماذا عنكما؟

لا مشكلة لدي في الزواج من بيضاء أو سوداء، أياً كانت لا مانع لدي، هذا عادي، ليس هناك فرق.

يصعب عدم الاتفاق مع بلحسن. كلانا يريد للحب أن يتخطى حاجز اللون. ولكن ما الذي يعنيه هذا لنساء سوداوات البشرة مثلي؟

إنها عبارة كثيراً ما تقال على سبيل المزاح. تحسين النسل يعني تحسين جينات عائلتك، في هذه الحالة من خلال إنجاب أطفال يزداد بياض بشرتهم.

عدت إلى تونس العاصمة لألتقي مرة أخرى الناشطة سعدية مصباح. لقد عاشت مع العنصرية لفترة أطول مني بكثير، ولذا أردت معرفة كيف تتعامل معها.

نضالنا كنساء يتخذ أوجهاً متعددة. تتم مهاجمتك كامرأة وكشخص أسود وبسبب شكلك. ألن تشعري بالإرهاق؟

من الطبيعي أن يشعر المرء بالإرهاق أحيانا ولكن متى ما ركعت على ركبتيك واستسلمت فلن تستطيع النهوض أبدا، هذا هو أساس الحياة، أن تناضل من أجل كل شيء. إذا كنت تؤمن بأنك لن تنال شيئاً بسهولة فعليك أن تأخذ الحياة بأريحية. عندما ذهبنا إلى جنوب تونس، رأينا صغاراً تتراوح أعمارهم بين عشرة وخمسة عشر عاماً ليس لديهم حتى حلم. إنهم لا يحلمون، لا يعرفون كيف سيكون المستقبل. قلت لهم: احلموا، الحلم ليس ممنوعاً، لا تيأسوا من أحلامكم فستتحقق. منيمتي هي حلم حياتي.

جعلتني أتذكر نفسي عندما كنت أصغر، من بين أحلامي كان أن أصبح عارضة أزياء كاللواتي كنت أراهن في المجلات ولكنني لم أر ولو مرة واحدة عارضة سوداء البشرة، ولذا كان حلمي مستحيل التحقيق. انتهى الحلم بسرعة. كنت صغيرة، في عمر 6 أو 7 سنوات.

لماذا ضيعت حلمك؟ أنا كنت عارضة. هل ما زلت تحبين أن تكوني عارضة؟ هذا ممكن التحقيق. يمكنك أن تصبحي عارضة اليوم.

So, I wrote „مزياية كيفما أنا“ what means „beautiful as I am“.

هناك شخص آخر أريد أن ألتقيه مرة أخرى: كمال زيري، سائق سيارة الأجرة الذي يريد تغيير اسم عائلته الذي يحمل وصمة العبودية. فهو ما زال ينتظر موافقة المحكمة على طلبه، لكن هناك خبر يخص ابنته لينا.

قضت المحكمة ابتدائياً بحذف عبارة "عتيق" المرفوقة بلقب "زيري" للمسماة لينا.

هذا هو الحكم يا سيد كمال.

شكر. شكراً جزيلاً.

أراد كمال إبلاغ ابنته بالخبر السار.

مرحباً لينا، كيف حالك؟

حصلت على الحكم لحذف كلمة "عتيق" من اسم عائلتك إلى الأبد.

حقاً؟

نعم، حصلت عليه. هل أنت سعيدة يا حبيبتي؟

هذا رائع، شكراً.

ما يزال على كمال أن ينتظر تغيير اسمه، ولكن على الأقل تحقق حلمه في تحرير ابنته من عبء اسمها المقرون بالعبودية.

انتهى وقتي في تونس. محطتي الأخيرة هي جلب الزي الذي خاطه صالح لي.

تبين لي أن الأمر أكثر بكثير من مجرد جلب ثوب جديد. فلأول مرة في حياتي، أمر بتجربة كاملة لعارضة أزياء، تلك التجربة التي حلمت بها عندما كنت طفلة.

إن شاء الله عندما يرى الناس هذه الصور سيفهمون أن الجمال لا يعتمد على الحجم أو اللون، الجمال هو الجمال الداخلي.

أتمنى لو كانت طريقة تفكيري حالياً هي كما كانت عندما كان عمري 15 أو 20 عاماً. أنا جميلة بالطريقة التي أريدها وأنت تريني كيف أكون جميلة.

الاختلاف هو أمر حري بأن نحتفي به جميعاً.

ولكن كثيراً ما أُخبرت، كامرأة سوداء، أن عليّ أن أتوافق مع معيار الجمال المثالي والذي هو في الواقع الجمال الأبيض.

تجعلني أشعر وكأنني أميرة. وأتحرك بسهولة. واللون جميل جداً.

عايشت العنصرية في كل مكان، لا أحتاج من أي أحد أن يحجز لي مكاناً لأنني أسود، كلا، على العكس من ذلك، علي أن أكافح لآخذ مكاني. بالتأكيد هذا ليس سهلا ولكن أعتقد أن عليك أن تكافح بطريقة ذكية. أنا أحجز مكاني والآخرون يستطيعون أن يفعلوا الشيء ذاته.

لقد حققت حلماً راودني لزمن طويل. لن أنسى هذا أبداً.

جئت إلى تونس لأعرف أكثر عن القانون رقم 50 وتأثيره على حياة التونسيين السود. لكنني خلال هذه الرحلة عرفت نفسي أكثر. هذه الرحلة جعلتني أنظر إلى تجاربي الشخصية على الاعتداءات المبطنة والمواقف العنصرية التي تعرضت لها خلال حياتي. وكما قال صالح فالعنصرية موجودة في كل مكان في العالم وعلينا بالتالي ألا نتوقف وأن نستمر بالكفاح. وقالت سعيدة أننا كأشخاص سود يجب ألا نتوقف عن الحلم. وكلامهم صح. أنا تجاهلت حلمي، توقفت عن رؤية نفسي كعارضة أزياء أو مذيعة تلفزيونية لأنني لم أكن أظن أنه يمكنني أن أقوم بتلك الأعمال بسبب لون بشرتي. إذا تعلمت شيئا من رحلتي في تونس هو أنه يجب أن نحارب، يجب أن نأخذ مكانتنا في المجتمع.

أغادر تونس مع شعور حقيقي بالأمل، ليس فقط تجاه الكفاح ضد العنصرية ولكن أيضاً تجاه نفسي كامرأة سوداء تستطيع تبوء مكانتها في العالم وستتمكن من تحقيق ذلك.

1. Text, der im Film im Dialekt gesprochen wird, steht hier auf Hocharabisch grau unterlegt. [↑](#footnote-ref-1)